الأم

القصة الفائزة بجائزة نوبل

عرض : فتحي الابياري

لقد غرست جميع الأديان والتقاليد حب الأم فى نفوس الأبناء فى كل مكان ، ومن كل لون وجنس . وغرست الطبيعة عاطفة الأمومة الجياشة فى كل أم .. حتى الأم فى الحيوان . وقد وهبتنا الظروف الاجتماعية فى بلادنا العربية عدة مزايا وخصال تكاد تكون من معالم الأسرة فى بلادنا . فأفراد الأسرة العربية يلتفون حول الأم ، بسبب الترابط والتماسك الأسرى ، وخاصة أن أحوالنا الاقتصادية تساعدنا على ذلك . أما البلاد التى تجبر كل فرد على أن يعمل ساعات طويلة مرهقة ومضنية فى سبيل لقمة العيش ، بحيث تخرج الأم ، ويخرج الأب ، ويخرج الأبناء جميعا كل صباح الى أعمالهم أو الى دراساتهم كأنهم قد شدوا فى ساقية لا تقف أبدا . ان تلك الحياة القاسية لا تتيح الفرصة للأبناء أن يلتقوا بأمهم عدة ساعات ، ليرتشفوا منها الحنان والحب والسلام ، والسبب فى ذلك أنها مشغولة دائما فى العمل خارج البيت ، وفى داخله . تلك الحياة القاسية جعلت بعض المفكرين والمصلحين يبتدعون يوما أسموه « بيوم الأسرة » ، فيه يجتمع جميع أفراد الأسرة ليتحدثوا ويتسامروا مع بعضهم وليقدم كل صغير هدية للأم وللأب ، وبالعكس . وفى ذلك اليوم أيضا يتعرف الأب والأم على مشاكل أولادهم ليحلوها وليستمعوا الى آلامهم وآمالهم وأحلامهم .

أما الملاحظة التى استرعت انتباهى عندما بحثت فى أدبنا القصصى عن عمل فنى كبير يدور حول الأم ، أننى لم أجد قصة كبيرة مثل قصة الأديب العالمى مكسيم جوركى « الأم » ، أو مثل قصة « الأم » للكاتبة العالمية بيرل بك التى نالت عليها جائزة نوبل عام ١٩٣٨ . أو مثل مسرحية « الأم » للكاتب كارل تشابك .. وغيرها من القصص التى تدور حول « الأم » فى عمل فنى كبير . أما الذى عثرت عليه فى أدبنا القصصى ، فهو عدد لا بأس به من القصص القصير عن الأم ، ولعل الأيام المقبلة تظهر لنا قصاصا عربيا ، يصور بقلمه لوحة خالدة للأم العربية .

وسبب اختيارى قصة « الأم » لبيرل بك ، أنها قصة عالمية ، يمكن أن تحدث فى أى مكان ، وفى أى زمان ، لأنها

تحلل النفس البشرية أدق تحليـــل ، وتغوص الكاتبة فى أعماق نفسية « الأم » فى مختلف أطوارها . واذا كانت الكاتبة قد اشتهرت فى العالم بقصتها الرائعة « الأرض الطيبة » ، فان قصة « الأم » هذه فى رأيى تفوق « الأرض الطيبة » ، لأن الكاتبة استطاعت أن تعبر بكل صدق عن مشاهد القصة الخالدة .

لقد حاولت بيرل بك أن تخلد كفاح أم من ملايين الأمهات فى العالم . فجعلت أحداث القصة تدور فى قرية صغيرة ، بدون اسم ، حتى يمكن أن تقع فى أية قرية فى العالم . ولم تطلق على « الأم » أى لقب . وانما أســـمتها « الأم » ، وجعلت كل أسماء شـخصيات القصة بالرموز ، فسوف نعيش أحـــداث تلك القصة الفـــذة مع الأم والأب ، والابن الأكبر ، والابن الأصغر والابنة ، والعجوز (أم الزوج) والعم وزوجته والوكيل .. وبعض اهالى تلك القرية الصغيرة .

كانت «الأم» تقوم بكل الأعمـــال فهي تساعد زوجها فى الحقل ، وتطهى الطعام ، وتنجب الأطفال وتتحدث مع حماتهـــا العجوز ، وهذا الحديث يعتبر من أهم الأعمال التى ينبغى أن تقوم بها . ونفس الأعمال كانت تقوم بها كـل يوم ، حتى تشابهت الأيام ، وانعدم الزمن بالنسبة لها .

فقد كانت تنهض فى الفجر والكل نيام، فتطلق الدجاج والجاموسة وتقودها الى الفناء . ثم تنظف مرابطهـا ، وتحمـل الروث المتخلف منها الى الكوم الموضوع فى احد أركان الفناء ، وتذهب الى المطبخ حيث تغلى الماء لكى يشربه زوجها وأمه العجوز . وتضع بعض هذا الماء المغلى فى وعاء لكى تغسل به عينى الطفلة . كانت هذه الطفلة تنهض صباح كل يوم موصدة العينين لا ترى بتاتا حتى تغسل الأم عينيها .

وعندما رأت زوجها وهو يتشـــاءب ويحك رأسه ، قالت له :

ــ عنـدما تذهب لبيع قش الأرز فى المرة القادمة ، فاقصد الى حانوت الأدوية القريب من باب المدينـــة ، واطلب دواء للعيون المريضة كعينى هذه البنت . لكن الرجل كان ضيق الصدر من تأثير النوم ، وقال متبرما :

ــ ولماذا نضيع مالنا القليل فى شراء دواء للعيون المريضـــة ما دام يستحيل ان تموت بهذا السبب ؟ انى كنت أشكو مرض العينين فى صغرى . ولم ينفق أبى شيئا على بسبب هذا المرض ، رغم أنى كنت ابنـه الوحيد الذى بقى على قيد الحياة .

هكذا كان شأن الأم كل يوم .. لكنها لم تتململ مرة فى تعاقب الأيام على هذا النحو ، ولم تتبرم بتشابهها وتماثلها .. ولو خاطبها أحد فى هذا الصدد لحدقت فيه دهشة بعينيها السوداوين ، وقالت له :

ــ لكن الأرض تتطور بين زمن البذور والحصاد ، ثم يجنى المحصول من أرضنا وندفع نصيب مالك هذه الأرض التى نستأجرها .. حبوبا . ثم هنـاك أيام الأعياد والسـنة الجديدة .. نعم .. وحتى الأطفال يتغيرون ويشبون . ثم أحمل من جديد .. كل شىء يتغير فى نظـرى .. بل كل شىء يتطور ويحملنى

على العمل من مطلع الفجر الى مغرب الشمس .

كانت هذه الأم تستمتع بمظاهر حياتها وتعاقب أدوارها فيها . تستمتع بالوضع والعمل فى الحقل . والأكل والشرب والنوم .. وكنس الدار وترتيبها ، وسماع نساء المزرعة يثنين على براعتها فى العمل والحياكة .. بل ان التشاحن مع الرجل كان أمرا طيبا وعاملا على اذكاء عاطفتها ومن أجل هذا كله كانت تستقبل اليوم الجديد بنشاط وحمية .

* * *

واستطاعت بيرل بك بأسلوب السرد المباشر أن تقدم لنا خلال الفصول الثلاثة الأولى كل شىء عن الأم وعن البيئة التى تعيش فيها ، وعن تنسيقها ، وأحلامها ، وآمالها . فى دقة ، وحلاوة اسلوب ، وفى الفصل الرابع تبدأ الكاتبة فى تصوير الجانب الآخر من الحياة التى تعيشها الأم . فترسم لنا صورة « الأب » الذى سيقوم بدور فعال فى أحداث القصة ، وبحيث يلقى ضوءا قويا على شخصية الأم ، طوال المواقف المختلفة حتى النهاية .

فالحياة كانت لا تتغير فى نظر الأب ، ولا أمل أمامه فى جديد . بل ان ولادة الأولاد التى كانت الأم تجد فيها لذة وسعادة ، لم تكن بالجديدة أمام ناظريه ، فقد كان الأولاد يولدون جميعا سواء متشابهين . لهم عليه واجب القوت والكسوة ، واذا كبروا وجب تزويجهم .. ثم يولد لهم ابناء بدورهم فيجيئون جميعا أيضا « ماركة واحدة » وهكذا كانت الأيام تتعاقب متماثلة . وكل يوم لا يأتى بجديد .

وهو نفسه قد ولد فى هذه المزرعة الصغيرة ، ولم ير فى حياته جديدا الا ما كان من ذهابه أحيانا الى البلدة الصغيرة الكائنة وراء التل على ضفاف النهر . وهو اذا استيقظ فى الصباح ، صافح عينيه منظر التلال المنخفضة والسماء التى لا تتغير ولا تتبدل .. ثم يذهب الى الحقل فيظل يكد ويكدح حتى يجن الليل . ثم يعود الى البيت الذى ولد فيه وينام فوق الفراش الذى نام فيه من قبل مع والديه حتى كبر ، واعدت له مرتبة خاصة .

بل لم يكن من جديد فى هذا البيت سوى بعض الأدوات القلائل التى جىء بها عند زواجه .. وهى اناء لغلى الشاى وغطاء أزرق فوق الفراش وشمعدان جديد ، واله جديد من الورق لصق فوق الحائط ، وكان هذا الاله يمثل رجلا كهلا عليه مظاهر الغنى والمرح ، يرتدى ثوبا مؤلفا من الوان حمراء وزرقاء وصفراء متعانقة مؤتلفة .. لكنه رغم هذا المظهر الباذخ لم يجىء بالغنى المنشود الى هذه الدار ، وطالما تطلع الرجل الى هذا الاله ، ولعنه فى ضميره ؛ لأنه كان يطل فى مرح على هذه الغرفة الحقيرة التى كانت حقارتها لا تتغير ولا تتبدل .

وتظل هذه الأسرة الصغيرة تكد وتكدح مثل باقى الأسر الموجودة فى تلك القرية . ولكن الأب لا يحتمل تلك الحياة ذات يوم ، فيرتدى أفخم ثيابه ، ويسرق كل القطع الفضية التى كانت « الأم »

تخبئهـــا للطوارىء ، ويغـادر القرية ولا يعود اليها أبدا .

وقد أرادت بيرل بك بهذا الحدث ، أن تجعل شـــخصية « الأم » الاستاتيكية تتحول الى شخصية اخرى ديناميكية ، كلها حياة متطورة ، فيها صراع عنيف مع أعماق النفس ، ومع تقاليد القرية ، ومع أبنائها ، ومع الزمن . عند هـذه النقطة بدأت « الأم » تواجه عدة مشاكل فكل من فى القرية يســـألها أين ذهب زوجها ، حتى المرأة العجوز والأطفال . كلهم يســـألون .. اين ذهب الرجل ، ولماذا ذهب ، وبدأت همسات النسوة تتكاثر ، ولكن « الأم » كانت تبتدع فى كل مرة أكذوبة ، حتى أصبحت الأكذوبة الكبيرة التى ابتدعتها حقيقة واقعة ، بل لقد صدقت هى تلك الأكذوبة وعاشت فيها .

* * *

بدأت احـــداث تطورات شخصية « الأم » بعد أن اختفى الزوج ، وظلت المرأة العجوز تسأل وتلح فى السؤال :

ــ ترى أين ولدى ؟ هل قال ابنى الى اين ذهب يا ابنتى ؟ عجيب .. أين ذهب ابنى ؟ .

وتجيب الأم قائلة :

ــ سيعود غـــدا ولا شك يا امى ، فارقدى الآن ونامى .. سيعود غدا .

وتجيب الأم عندما يسألها أطفالها :

ــ سينام فى البلد بغير شك ، ويرجع غدا أو بعد يومين .. سيعود ولا ريب بعد أن تنفد منه تلك النقود .

وتستطرد فى لهجة مريرة :

ــ وبعد أن يتسخ رداؤه الجـديد ، ولا يبقى بد من غسله .

ومرت الأيام ولكن الرجل لم يعد ، وزاد همس النسوة ، وجئن اليها ذات يوم ؛ ليعرفن سبب هجـــر الرجل . وعندئذ اختلقت لهن قصـــة ، لتحافظ على كبريائها وكرامتهـا . فقـالت لهن بجرأة :

ــ ان له صديقا فى مدينة بعيدة ، وقد اخبره هذا الصديق بوجود مكان يعمل فيه ويربح اجرا طيبا ، فلا نحتاج الى اجهاد انفسنا بالعمل فى الحقول . واذا لم يناسبه هذا العمل فسيعود سريعا ، أما اذا أعجبه ، فلن يعود حتى يمنحه سيده عطلة .

وذهلت العجوز وهتفت :

ــ ولمـــاذا لم يخبرنى بهذه القصة الطيبة وانا أمه ؟ .

فانتحلت الأم قصة أخرى واجابت :

ــ طاب منى يا أمى ألا اخبرك بهـا لانه يعرف لسانك « السايب » ويخاف أن يعرف أهل القرية اكثر مما يجب . ولأنه يريد ألا يعرفوا شيئا اذا يستمر فى العمل .

فقالت العجوز وقد آلمها هذا القول :

ــ هل قال هـــذا حقا ؟ .. صحيح

يا ابنتى اننى كثيرة الكلام .. لكن لسانى « مش سايب » .

* * *

وهكذا ظلت الأم تكذب ، وتمعن فى الكذب والاختلاق وتحبك أطراف كذبها حتى تسبغ عليه طابع الحقيقة . واحتفظت بالهدوء والسكينة . وظلت تكدح بمفردها فى الحقل . وكان يشق عليها كما كان يشق على سائر الفلاحين أن تمنح المالك نصيبا من ثمار كدها .. لكنهم كانوا يتنازلون عنه صاغرين ، فكانت تحذو حذوهم .

لكنها كانت اذا انتصف الليل ، تبكى فى سكون ومرارة ولوعة . كانت تبكى لأنه ذهب وهجرها ، ولأنها أصبحت تستهدف للعار والفضيحة .. ولأنها امراة وحيدة ، وقد بدت لها الحياة شديدة القسوة وهى تعول أربعة انفس يعتمدون عليها .

واخيرا وجدت حلا لأزمتها وحيرتها . فقد ذهبت الى كاتب رسائل ، بعد أن باعت كل ما ادخرته من الأرز ، وحصلت على ورقة نقدية ثمنا لها . فقالت لكاتب الرسائل :

ـ اريد أن أكتب رسالة باسان أخ لى يشتغل ولا يمكنه أن يعود الى بيته ، فاكتب ما أقول لك .. وهو مريض ضريح الفراش .. ولذلك فانى أكتب بلسانه ..

وذكرت الأم اسم زوجها باعتباره اسم الأخ ، وذكرت اسم مدينة بعيدة كانت تعرف قربها لمسقط راسها ، ثم ذكرت اسمها هى باعتباره اسم زوجة الأخ التى ستوجه الرسالة اليها ، كما ذكرت اسم قريتها لكى يبعث بالرسالة اليها ، وقالت له :

ـ اسمع ما يريد أخى ان يقول لزوجته :

« انى أشتغل شغلا متواصلا ولى مركز طيب، والأكل متوفر لى ، وسيدى رجل كريم . وكل ما أؤديه من العمل هو اعداد الشاى لسيدى وتقديم قصبة التدخين له ، وحمل رسائله الى أصحابه وانى أتناول طعامى عنده وأنال ثلاث قطع من النقود الفضية فى الشهر ، وقد اقتصدت من أجرتى عشر قطع فضية حولتها ورقا ماليا له قيمة الفضة فى هذه الأيام ، فانفقيها على امى وعلى نفسك وعلى الأولاد .

فقال لها الكاتب : أهذا كل شيء ؟ .

فاجابت الأم : لا .. قل هذا أيضا . « لم أتمكن من الحضور فى عيد السنة الجديدة لأن سيدى يحبنى كثيرا ولم يتيسر له أن يستغنى عنى . لكنى

سأحضر فى السنة القادمة اذا تمكنت ، واذا لم أتمكن فسوف ارسل اليك كل ما أدخره من أجرتى مرة فى السنة » .

وقل هـذا ايضا .. « اخبرى امى العجوز أنى سأحضر لها عنـد رجوعى قماشا احمر لصنع كفنهـا الثالث ، وسيكون من أجود الأصناف . » .

وهكذا استطاعت الأم بتلك الأكذوبة المحبوكة أن تنقذ كرامتها وأن ترك زوجها للقرية ، انما كان للبحث عن عمل أرقى وأفضـل . وأخرست الأكذوبة كل الأقاويل والهمسات .. بل لقد مكنت لأكذوبتها البقـاء فترة طويلة حينما قالت فى رسـالتها « واذا لم أتمكن فسوف أرسل اليك كل ما أدخره من أجرتى مرة فى السنة » . وعندما وصلت الرسالة الى القرية ، فرح الأطفـال ، وظل الغلام يقول لكل من يصادفه ان رسالة وردت من أبيـه . وأحدثت الرسالة دويا كبيرا فى القرية الصغيرة ، وتأكدوا من صـحتها عندما راوا مع « الأم » الورقة المالية . فتراجعوا أمامها فى تجلة واحترام ، وسـارت الأم الى بيتهـا فخورة مزهوة ، يتبعها الطفلان وهما يشاطرانها هـذا المجد . ولكنها عندما خلت الى نفسـها ظلت تبكى فى صمت وسـكون . ولم تكن الرسالة ولا الورقة المالية سوى هباء أو كالهباء بالقياس الى كرامتها المجروحة . ولكن تلك الأكذوبة كانت لها قيمة كبيرة ، اذ لم يعد أحد من أهل القرية يعيرها بأنها امرأة هجرها زوجهـا . بل لقد جعلت بعض اهالى القرية يسعون اليهـا سرا للاقتراض منها ، وكان فى طليعتهم كاتب القـرية وبعض الرجال المتبطلين الذين أرسلوا زوجاتهم للحصول على هـذا القرض .

* * *

لقد كانت هـذه « الأم » منذ بدء شبابها مخلوقة ذات مشاعر متأصلة ، واحساسات عميقة ، ولـكنها سـاكنة صـامتة . كانت امرأة عميقة الفؤاد ، موفورة الحيـاء .. ولم يحدث قبل زواجها ، وحين كانت فتـاة عذراء أن اتجهت بخواطرها الى الرجال من حيث هم رجال . وكانت اذا هزتهـا المشاعر العنيفة والأشواق الغريبـة عن نفسها لا تتطلع قـط الى الرجال لترى كنههم وتستقصى شـأنهم ، بل كانت تطوى الضلوع على حنينها وأشواقها وتحتملها فى صبر وسكون وانتظار . فلما تزوجت وأدركت كنه الرجل ، سطع أمام عينيها قـدر يسـير من ذلك الحنين العميق الصامت الذى كان يجيش فى نفسها .

وفى براعة فائقـة طفقت بيرل بك ، تحلل وتمهـد الطريق للموقف العنيف الذى ستقع فيه الأم . فقد صورت لنا فى سطور قليلة بدون اسهاب أو اطالة ، عذرية وشباب هـذه الأم .. الى أن وصلت الى ذروة النضـوج ، وعنفوان حياتها .. ثم هروب الزوج ، وتركها فى قمة الشباب ، مكبلة بأغلال المسئولية .. مسئولية أربعة أرواح . وبأغلال الكذب فلو كان فى عداد الأموات ، لأصبحت أرملة ، واتضح كل شىء . ولكنها كانت مضطرة كل يوم الى الكذب حين يسألها كل من يصادفها عن زوجها . لكنها عندما

تستقر فى بيتها ، تتمزق قلبا بهذا الكذب المتصل ، وكانت أحيانا تغمرها الوحدة ، ويطغى عليها الحزن ، فتهتف من اعماق قلبها : « ما أتعسنى وأشد وحشتى .. أنا التى أخلق لنفسى رجـــلا من عالم الكذب والأوهام .. ! » .

* * *

ولم يفطن أحد الى ما تعانيه « الأم » من قسوة الوحدة ، والشوق الى الرجل الآ وكيل مالك الأرض ، الذى كان يحضر الى القرية لياخذنصيب المالك ونصيبه . استطاع هذا الرجل بخبرته ، وبغريزته ان يعرف أن هذه المراة فى حاجة الى شىء . فظل يتردد اليها . ولم ياخـذ منها نصيبه ، قائلا لها :

« أنت الآن امراة وحيدة وقد ذهب زوجك عن البيت ، وكل هذا المحصول من عملك الخـــاص . ولن آخـذ من المحصول سوى نصيب المالك .. ولن آخـــذ أى أجر منك ايتها الزوجـــة الطيبة . »

وظل يحوم حولها ، حتى لم تقو على المقاومة . ونجحت بيرلا بك فى تصوير هذا الموقف الشائك ، أو مشهد الذلة التى وقعت فيهـــا « الأم » بعد صراع عنيف جبار مع نفسيتها ، ولكن الغريزة المتاصلة فى أعماق الانسان كانت اقوى وأعنف . كانت كالاعصار الرهيب الذى يطوى كل شىء يصادفه . وجرف فى تياره « الأم » أيضا .

ففى الفصل العاشر ، صورت الكاتبة المشهد الشائك ، دون أن ينزلق قلمها فى مهاوى البورنوجرافية ، التى تتعمد اثارة الغرائز الجنسية فقط .

« واستولى عليهـــا ذعر شديد لم تحس مثله فى حياتها » فقد أدركت ان هذا النهم الذى يساورها الآن سيزيد استعارا وضراما اذا لم ...

وهى لم تحلم بانهـــا ستقوى على الرفض والتمنع وهى تعلم الآن أن هذا النهم الذى بها هو نفس النهم الذى به . وجعلت تئن أنينا عاليا وتناجى نفسها قائلة :

ـ من الخير الا ينالنى ! .. اواه .. كم أود الا ينالنى .. وان انجو ..

على أنها نهضت . عن الفراش ، حتى وهى ترسل هذا الأنين وغادرت القرية النائمة وعادت الى الحقول . وسارت فى الطـــريق الضيق الملتوى الى حيث كان ينعطف حول معبد صغير مهجور .. حيث وقف الرجل عند بابه ينتظرها .. ولم تستطع أن تجاوزه .. كلا .. فقد دخل المعبد وانتظر ..

فتبعته الى الباب وأرسلت نظرها .. فاذا هـو واقف فى الداخـل يترقب ، وقد لمعت عيناه فى المكان الظليل كعينى الحيوان الوحشى .. فدخلت .

وقفا يتطلعان احدهما الى الآخر فى الضوء الكليل ..

كانا مخلوقين غارقـين فى حـلم .

مستيئسين .. لا توقفهما قوى الدنيا في هذه اللحظة .. وتاهب كلاهما للأمر المحتوم ..

غير ان المراة امسكت لحظة .. فقد افاقت من حلمها ورات آلهـــة المعبد الثـــلاثة .. كبيرهم كهل وقور يحدق امامه ، والى جانبيه تابعات أقل شانا .. وهم جميعا أرباب طيبون اقيمت انصابهم في جانب الطـريق للمســـافرين ممن يتعبـــدون أو يلتمسون الاعتصـــام بالمعبد ..

فتناولت الرداء الذى وضعته جانبا وذهبت الى الآلهـــة فطرحتـــه فوق رءوســـها ، وحجبت أعينهـــا الناظرة المحدقة ... »

* * *

لقد ارتكبت « الأم » هذه الخطيئة مرة واحدة ، ولم تعد اليها ، وان كانت في شوق وحنين الى العودة اليها . ولكن بيرل بك لم تغفر لهـــذه الأم خطيئتها تلك ، بل صبت عليها اللعنات ، وعاقبتها اشد معاقبة . اذ اصيبت ابنتها الوحيدة الجميلة بالعمى . وعندئذ بدأت المرحلة الثانية من حيـــاة « الأم » شاعرة بأنها قد أجرمت في حق ابنتهـــا المسكينة ، وذلك بعد ان سمعت كلام الرجل الذى يبيع العقاقير :

« وما فائدة الحزن ؟ هذا مصيرها .. لأنها في حيـــاة أخرى قد ارتكبت عملا شريرا أو نظرت الى مشـــهد محرم ، فاستحلت هذه اللعنة أو أن يكون أبوها أو أنت أيتها الزوجة الطيبة قد ارتكبتما اثما .. فمن يعـلم سر الانسان ويطلع على خفايا قلبه ؟ لكن مهما تكن الحقيقة فان اللعنة واقعة هنا على هذه الصبية ولا قـــدرة لمخلوق على دفع القضاء ، ونقض ارادة السماء .. » .

لقد كان العقاب صارما ، خاصة وانه لم يقع على الأم مباشرة ، وانمـــا حل بمخلوقة بريئة . عندئذ استحوذ على الأم شعور بالنفور والمقت من نفسها ؛ واحست بأنها تخلصت نهائيا من شهوات الشـــباب ونزواته وجماحه ، وانطوت صحائفه من سجل حياتها ، وانطمست في نفسها صورة الرجل من حيث هـــو رجل .. ولم يبق في ســـمائها سوى ولديها وابنتها العمياء .. والعجوز .

ولى عهد الشباب عن الأم ، ونيفت سنها على الثالثة والأربعين . وتمرد الابن الأكبر ، وصرخ فيها عندما علم أنها وعدت الابن الأصغر بخاتم فقال لها : « وهل كنت طفلا وانا في الرابعة عشرة ؟ هل كنت العب في موسم الحصـــاد وانا في الرابعة عشرة من عمرى ؟ وهل كنت ترشيننى بخاتم أو رداء جديد أو غيره ، مما لم أكن أربحه وأناله بكدى ؟ » .

ثم قال لها منفجرا « نعم ! .. انت تحتفظين بالنقود ! .. وانا أعطيك كل ما نربحه ! .. وانا لا آخذ بنسا واحدا لشخصي ولا أدخن قصبة صغيرة ، ولا اشرب قدحا من الخمر ، ولا اشترى لنفسي شيئا مما يناله اى شاب ويعده حقا لنفسه ! .. ومع ذلك فانت تعدينه بكل ما لم أنله فى حياتى ! .. ولأى داع ؟ « لكى يقوم بالعمل الذى يجب ان يؤديه بلا مقابل حتى يدفع ثمن ما يأكل وما يشرب ! . »

* * *

عندئذ أحست « الأم » « أن الزمن يدور » ، وأن الابن قد كبر . لذلك سارعت بتزويجه . وأحست انها تعيش فى دور جديد من أدوار حياتها .. دور الحماة . واستغرقت الكاتبة أكثر من فصلين لتحليل مشاعر الأم فى تلك المرحلة الجديدة والمشاكسات التى كانت تدور بينها وبين زوجة ابنها التى لا تلد . ونجحت « الأم » بعد لأى فى تزويج ابنتها لزوج لم تره . فقد جاء أحد اقربائه وأخذ ابنتها الى مكان مجهول . ومضت الأيام سراعا ، فاشتاقت الأم الى رؤية ابنتها ، فذهبت اليها بعد رحلة شاقة ، وعندما وصلت الى المكان الموحش الذى توجد فيه ابنتها . فوجئت بأنها . قد ماتت منذ لحظات . وكانت صدمة عنيفة وقاسية لأنها شعرت بأنها قد اجرمت فى حق ابنتها المسكينة وزوجتها دون أن ترى الزوج وأهل زوجها .

* * *

وتوالت الصدمات ، فقد قبض على ابنها الأصغر بتهمة الشيوعية ، وحاولت أن تنقذه ، ولكن فقرها حال دون ذلك وذهبت لترى ابنها وهم يعدمونه . وعادت الى القرية والأحزان تطفح منها . وهاتف من الأعماق يقول لها « كل هذا بسبب خطيئتك » . ولكن أليس للعقاب نهاية ، وما ذنب الأولاد الأبرياء . لقد عميت ابنتها وماتت بعيدة عنها . ثم رات بعينيها الدم ينبثق من رقبة ابنها وهو يعدم . والآن .. انها تجلس وحيدة ، قلقة ، حتى أنها لم تر حفيد ابنها فقد مرت السنوات وزوجة ابنها الأكبر لم تلد .

كانت كل حياتها ، أن تجلس أمام الدار ، تستعيد ذكريات شباب أيام أن كانت تراقب اولادها وهم يلعبون فى التراب ، وأيام أن كانت تنتظر عودة زوجها من الحقل . واستعادت ذكريات الأكذوبة التى جعلت القرية تعيش فيها حتى أنهت الأكذوبة بعد مرور عشرين عاما ، بأكذوبة أخرى ، وهى موت زوجها لتستريح من التفكير المتواصل فى

زوجها ، ولتؤمن بالحقيقة الواقعة أن هذا الزوج قد ذهب ولن يعود .

وفيما كانت غارقة فى احلام ذكرياتها ، جذبها الى عالم الواقع صوت ابنهـــا الأكبر صارخا :

ـ امى .. امى .. جاء ولـدى .. حفيدك يا امى ! ..

وعنـدئذ شاعت الفرحة على جميع قسمات وجهها ، وذهبت مسرعة لترى حفيدها . وراحت تنظر اليه من رأسه الى قدميـــه وتضحك وتعاود النظر . وأخيرا دارت بعينيها فى أرجاء الغرفة تلتمس زوجـــة العم ـ المرأة الوحيدة التى كانت تعرف سر الخطيئة لأنها قامت باجهاض الأم ـ فاذا هى واقفـــة بين النساء وقد تعلق بها بعض أحفـــادها لرؤية هذا المشـــهد .. وما كادت الأم « العجوز ترى زوجة العم حتى رفعت الطفل بيديها لكى تراه صاحبتها .. وهتفت وهى تضحك عاليا ، وقد نسيت امتـلاء الغرفة بالنساء ، وبدت عيناها منتفختين من أثر البكاء المتصل :

ـ انظرى يا بنت عمى ! .. انى أشك فى امتلاء نفسى بالذنوب ـ كما خيل الى فيما مضى .. هل رأيت حفيدى ؟.

وبتلك العبارة أنهت بيرل بك أروع قصصها « الأم » . واستطاعت خلال تسعة عشر فصلا أن تجعلنا نعيش بكل احاسيسنا ووجداننا مع تلك الشخصية النامية شخصية «الأم» ، ومع شخصية ابنهـا الأكبر ، وابنها الأصغر . بل مع كل شخصية فى القصـــة . فقد كانت حبكتها الفنية من الجودة والروعة بحيث لا يمكن أن تنتزع كلمة واحدة . ونجحت الكاتبة عن طريق السرد المباشر فى تحليل نفسية الأم ، تحليلا نفسيا دقيقا فى كل مرحلة من مراحل تطور الشخصية .

■ ■ الحق . . أن هذه القصـة تعتبر من أبدع القصص الانســـانية التى تدور حول « الأم » . اذ بعدت عن الدعاية السياسية كما حدث فى قصة « الأم » لمكسيم جوركى . وتخلصت من الصـنعة وبعض الافتعال كما حـدث فى مسرحية « الأم » لكارل تشابك . ولذلك تعتبر القصة خير هدية لكل أم .. فى العالم .